خامسًا: المستطرف في كل فن مستظرف

خامسا : المستطرف فى كل فن مستظرف .

كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) ليس موغلا فى القدم، وقد حاول صاحبه ان يستخدم عنصر القصة والاستعانة بايراد بعض القصص والحكايات والنوادر والأخبار . فضلا عن ان لغته سهلة لا صعوبة فيها ولا تعقيد . لدرجة أن معاصريه اتهموه بأنه لم يكن عميق المعرفة بالنحو ، وبان لغته لم تكن بريئة من الأخطاء . ورغم ذلك فان قارىء هذا الكتاب ليس من اليسير عليه ان ينسى تأثيره . او أن يغفل الاستفادة منه ، بشكل او بآخر . ويجد كتاب القصة فى هذا الكتاب مادة تصلح لصهرها ، وبلورتها . واعادة صياغتها وتشكيلها وعرضها فى ثوب جديد ، وباسلوب جديد يتلاءم وحاجة المجتمع وفكر العصر الحاضر .

والكتاب فى جزئين كبيرين : الجزء الأول يقع فى ٢٨٠ صفحة من القطع الكبير والجزء الثانى يقع فى ٣٣٢ صفحة من نفس القطع . وبهامشه كتاب « ثمرات الأوراق » لتقى الدين ابى بكر بن على بن محمد بن حجة الحموى . ويليه بالهامش ايضا ذيل للامام ابن حجة الحموى ، وذيل للعلامة محمد بن ابراهيم الأحدب . ونشير الصفحة الأولى من الكتاب الى هذه الحقائق . والى ان كل جزء يحتوى على ابواب وفصول ، يفضى بعضها الى بعض ، ويقود بعضها بعضا . وكأنه ينبه القارىء الى ضرورة قراءة الكتاب ككل فى جزئيه . وهذا يدفعه الى أن يتحدث فى كلمة التقديم عن الأبواب والفصول التى يضمها الكتاب بين دفتى الجزئين معا . فى حين نراه يفصل بين فهرس كل جزء منهما على حدة .

فلئن كانت المقدمة قد تضمنت الاشارة الى موضوعات الجزئين ، فان الجزء الأول استقل بالفهرست الخاص به كما استقل الجزء الثانى بفهرسته ايضا .

وهو يوضح ذلك فى كلمته التى تطالعنا بالصفحة الأولى من صفحات الفهرست حيث يقول :

(فهرست ما فى النصف الأول من كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف» من الأبواب والفصول المعروف مجميعها فى ديباجة الكتاب وهى اربعة وثمانون بابا منها فى هذا النصف اثنان واربعون كما هو موضوع بهذه الفهرسة المجعولة للاستدلال على اى باب من الأبواب أو فصل من الفصول فى اى صحيفة من صحائف هذا النصف) .

انه يفهم الدور الذى يلعبه فهرست الكتاب فى ارشاد القارىء وتعريفه بمحتوى الكتاب . لهذا فانه وضعه فى أول الكتاب ، قبل المقدمة . وجعل له أرقاما مستقلة عن بقية الأرقام التى اتخذتها صفحات الكتاب .

كذلك فانه يكشف عن الدافع الذى دفعه الى مثل هذا النوع من التأليف . وكيف أنه لا يعتبر عمله فريدا فى نوعه . او جديدا فى اتجاهه ، أو متميزا فى موضوعاته ، وانما قصاراه انه يسعى فى محاولة السير فى نفس الدرب الذى سار فيه مؤلفون قبله . تأثر بهم ، وحاكاهم ، وأخذ منهم ، ونقل عنهم . لا غرور على الاطلاق .

ولا استعلاء على القارىء . ولا تفضل على من قد يحصل شيئا من الفائدة من وراء الكتاب . ومهما بدا جهده واضحا وعمله مضنيا ، فانه لا يشعرك بشيء من هذا المبدأ أبدا . وان كنت انت بالتأكيد سوف تقدر فيه هذه القيمة العلمية وغيرها من المثل الأخلاقية التى نحتاج اليها : ادباء وباحثين وناقدين . وهو لا ينسى ذكر المصادر التى اعتمد عليها من كتب غيره من المؤلفين . وهذه سمة نفتقدها فى بعض الذين يكتبون وينقلون عن غيرهم نقلا حرفيا امينا دون ادنى اشارة الى اولئك المعتدى عليهم . وكانوا موضع السرقة العلنية المتعمدة . انا نفتقد هذا الحرص على اعطاء كل ذى حق حقه .والذى يشكل قيمة علمية فى حد ذاته . ورجوعنا الى مثل هذه المؤلفات يجب ان يكون مدعاة الى التمسك بالقيم الايجابية التى تتحلى بها .

فالابشيهى ، جامع هذا الكتاب او مؤلفه ، لا يكتفى بقوله انه راى جماعة من ذوى الهمم جمعوا اشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم ، وبسطوا مجلدات فى التواريخ والنوادر والأخبار والحكايات واللطائف ورقائق الأشعار ، فاختار من بينها جميعا ما ضمنه كتابه الذى جعله مشتملا على كل من ظريف .. ولكنه يذهب الى ابعد من ذلك فيقول : (ونقلت فيه كثيرا مما اودعه الزمخشرى فى كتاب « ربيع الأبرار » وكثيرا مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » ورجوت ان يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد ، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة) .

وينتقل بعدئذ الى شرح منهجه وخطته فى تأليف الكتاب وتجميعه والتوفيق بين أبوابه وفصوله . وكيف أنه قرن الأصول فيه بالفصول وجعل أبوابه مقدمة ، وفصلها فى مواضعها مرتبة منظمة ليقتصد الطالب الى كل باب منها عند الاحتياج اليه . ويعرف مكانه بالاستدلال عليه . بمعنى أن الترابط موجود بين أبواب الكتاب وفصوله . وأن المؤلف كان حريصا على أن يتوفر فى كتابه شىء من التناسق والوحدة . رغم أنه يودع فيه أشتاتا متفرقات كما يقول . وسنلاحظ ذلك بعد قليل . ولعل هذا هو الذى حدا بمؤرخى الأدب الى أن يضعوا « الابشيهى » ضمن طائفة من الكتاب اشتغلوا بما لا يدخل فى باب من أبواب علوم اللغة كالنحو وغيره . فلا هم شعراء ولا هم من المبدعين وانما هم ألفوا فى الأدب بصفة عامة . أو اشتغلوا بجمع الأشعار والأمثال والحكايات الجدية والنوادر الهزلية ، والمواعظ ، وقصص الأولين ، وما شابه ذلك .

وبالتالى فان كتابا كالمستطرف يصنف ضمن الموسوعات الأدبية أو كتب الأدب العامة ، أو الثقافة العامة وربما الموسوعية .

ولابد أن « الابشيهى » قد تأثر فى ذلك بمن سبقوه . ففى عهد خلفاء بنى أميه فى الشام والأندلس . وفى أيام خلفاء بنى العباس فى العراق . كانت سوق الأدب رابحة تماما . اذ كانوا يقربون من مجالسهم أدباء عصرهم ليحادثوهم بما يروح نفوسهم ويشرح صدورهم من قص نوادر غريبة وأخبار عجيبة وانشاد أشعار رقيقه . ثم تبعهم فى ذلك حكام الأقاليم أو عمال الأمصار . فكان

الأديب يجتهد فى حفظ الأشعار واستيعاب ملح السالفين والحاضرين واستحضار لطائفهم ونوادرهم ليكون ذا اطلاع واسع واقتدار بارع ، على أن يحضره بداهة فى مجلس الخليفة او الأمير ما يقتضى الحال ذكره لينال منه عددا من الجوائز والمنح والهدايا . وقد دونوا لهذا الغرض مصنفات تجمع تلك النوادر والاخبار والملح والأشعار وغيرها .

يدخل فى هذا النوع من التأليف كتاب « كليلة ودمنة » الذى نقله الى العربية عبد الله بن المقفع كاتب الخليفة ابى جعفر المنصور العباسى . وكتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه . و «الأغانى » لأبى الفرج الاصبهانى . و « ونثر الدرر » لأبى سعد منصور بن الحسين وزير مجد الدولة رستم بن بويه من ادباء القرن الرابع الهجرى . و « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصبهانى . و « زهر الآداب وثمر الالباب » لأبى اسحق ابراهيم المعروف بالحصرى القيروانى . و « الغرر والدرر » للشريف المرتضى أبى القاسم على بن الطاهر . و « ربيع الأبرار ونصوص الأخبار » لأبى القاسم محمود الزمخشرى . و « زاد الرفاق » لأبى المظفر محمد الأبيوردى . و « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار فى الأدبيات والنوادر والأخبار » لمحيى الدين أبى بكر محمد المعروف بابن العربى . و « ريحانة الأدب » لأبى الحسن على بن موسى الأندلسى . و « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » لشهاب الدين احمد الدمشقى المعروف بابن عرب شاه . و « روض الأخبار

المنتخب من ربيع الأبرار » لمحيى الدين محمد بن الخطيب . ثم « المستطرف فى كل فن مستظرف » لشهاب الدين أحمد الابشيهى .

ومؤلف هذا الكتاب من علماء القرن التاسع . وهو اديب مصرى . ولد عام ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م ، قرية « ابشوية » من اعمال مديرية الغربية . وبعد أن حفظ هناك القرآن فى العاشرة من عمره ، درس الفقه والنحو . وفى عام ٨١٤ هـ (١٤١٢م) حج الى بيت الله فى مكة وكثيرا ما تردد على القاهرة وحضر دروس جلال الدين البلقينى . وما لبث أن أصبح خطيب القرية التى ولد فيها بعد وفاة والده . ويقال انه الف كتابا آخر فى الأدب يقع فى مجلدين عنوانه « اطواق الازهار على صدور الانهار » . كما انه بدأ فى تأليف كتاب اقرب الى التخصص عنوانه : « فى صنعة الترسل والكتابة » . ويذكر حبيب الزيات فى كتابه « خزائن الكتب فى دمشق وضواحيها » : إن الابشيهى هو مصنف المخطوط المسمى « تذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين » .

أما اشهر الكتب واكثرها ذيوعا وانتشارا ، فهو الكتاب الذى بين أيدينا « المستطرف فى كل فن مستظرف » . وقد ترجم الى الفرنسية سنة ١٨٩٩ . وترجم أيضا الى التركية . ونحن ندعو الى أن يطبع طبعة شعبية ، تباع بثمن زهيد ، حتى يصبح فى متناول الناس جميعا . لكن بعد تنقيحه وتهذيبه ، وبعد اعادة تصنيفه . وبعد أن يتناوله المتخصصون كل فى مجال تخصصه ، فيعيدوا النظر فيما ورد به ، ويضيفوا اليه بعض الهوامش التفسيرية والشروح

التوضيحية . بعدئذ تتكشف فعلا فوائده التاريخية والاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية والأخلاقية .

ذلك ان الكتاب تعرض لمسائل متعددة وقضايا جديدة خطيرة . واتى بذكر شواهد وامثلة من التاريخ يتصل بعضها بشخصيات دينية لها قيمتها ومكانتها وخطرها . ويرتبط بعضها بوقائع سياسية معينة . ويتعلق اغلبها بامراء وحكام او بمن اسماهم الصالحين او بذوى الكرامات من الأولياء . وهو يلجأ الى القصص فى معظم الأحوال . وهذه القصص فى حاجة الى رجال الدين فعلا لكى يميزوا الصحيح منها وغير الصحيح . الواقعى والمختلق . مادامت تتعرض لأمور دينية وحضارية . ولا يقف الأمر عند هذا الحد . بل ان الباب الثانى والستين يتناول ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات ، وخواص الطير والحيوان ، لا نستطيع فهمه جيدا الا فى ضوء تفسير احد المتخصصين فى البيطرة مثلا . والباب الخامس والستون يتعرض للبحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار ، يحتاج الى متخصص فى علوم البحار . والباب السادس يتناول عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وهى مسائل جغرافية . وكذا الباب السابع والستون يتعرض للمعادن والأحجار وخواصها . بينما يحتاج الباب الثمانون الى دارس طب متخصص ، لأنه يقف عند الأمراض والعلل والدواء والطب وكيفية التداوى من الأمراض .

الى جانب هذه الموضوعات المتخصصة يتحدث المؤلف فى امور

اجتماعية واخلاقيه تهم الانسان من حيث هو انسان . له علاقاته بالآخرين أفرادا وجماعات . فيناقش طريقه التعامل مع الناس ، والقيم الاجتماعية المثلى . وما ينبغى ان تكون عليه المعاملات اليومية . بل انه يتناول ما تصطلح على تسميته الآن « بالاتيكيت ». ونعجب اذ نقرأ له ما يشبه الأصول التى نطلع عليها فى الكتب والمجلات الحديثة التى تهتم بمثل هذه الأشياء . وكأنه حقا يريد ان يحيط قارئه بكل شىء علما وباسلوب تصحى . مستعينا فيه بتجسيد بعض الوقائع والأحداث التى حدثت فى الحياة اليومية خلال فترة زمنية مضت وانقضت .

ولا يفوته دائما الاستناد الى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن الصحابة او العلماء والفقهاء واشعار الشعراء . وهى فى مجموعها تشكل الأدوات التى يتعامل بها مع القارىء فى فصول الكتاب الكثيرة . وقلما يخلو فصل فى أى موضوع من هذه الوسائل التى يستعين بها ويعتمد عليها . انها تواجهنا عند حديثه عن الشفقه وفضل الشفاعة واصلاح ذات البين . وفى تناوله قضية الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح .

وفى كلامه عن الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت والشرف والسؤدد وعلو الهمة . كما انها موجودة معه وهو يذكر عجائب المخلوقات وصفاتهم ، وخلق الجان ، والدواب والوحوش . وفى غير هذه الأبواب ، وازاء بقية الموضوعات والقضايا .

وعلى نحو ما شرح الابشيهى فى المقدمة تماما ، نجده يلتزم

بما سنه لنفسه من خطة . فان الفصول تتبع الأبواب . واذا جاءت بعض الأبواب متضمنة قضايا عامة أو صفات كلية يأتى فى الفصول الملحقة بها فيذكر الأدلة والشواهد والأسانيد . واحيانا نلاحظ انه يتعمد الاتيان بالشىء ونقيضه . وكأنه يريد ان يقول بذلك ان الحياة ليست خيرا كلها ، ولكنها مليئة بالخير والشر ، بالنور والظلمة . بالأسود والأبيض . بالنهار والليل . بالكرم والبخل . بالغنى والفقر . بالأشرار والأخيار .

وعلى سبيل المثال ، يتحدث البابان الثلاثون والحادى والثلاثون عن الخير والصلاح والسادة الصحابة والأولياء ومناقب الصالحين . بينما يذكر الباب الثانى والثلاثون « الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاعة » . ويقف الباب الثالث والثلاثون عند الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد واحاديث الأجواد . بينما يتعرض الباب الرابع والثلاثون للبخل والشح وذكر البخلاء واخبارهم وما جاء عنهم . ولا يترك موضوع الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم ، دون معالجة الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد . وهكذا ...

ويستطيع القارىء لهذا الكتاب أن يحدد ملامح شخصية المؤلف من خلال أقواله هو واحكامه هو : اذ ان له رؤية خاصة به نتبينها احيانا فى تعليق قصير له ، أو فى مجرد اختياره لواقعة معينة أو حادثة بذاتها أو موقف ما دون غيره من المواقف . ومع انه

يلتزم الحيدة أو يوحى بأنه ينقل عن غيره ، ويروى ما رواه آخرون ، فانا نظفر لديه بوجهة نظر خاصة فى الحياة ، والناس والعلاقات الاجتماعية ، والسياسية والملك والسلطان ، والعدل ، وما يجب على السلطان وغيره من رجال الدولة جميعا .

ولـم يأت عبثا حديثه عن « العقل والذكاء » ثم العلم ، فى مقدمة كتابه . فنراه يعرف العقل بانه الوسيلة التى يدرك بها المرء المعلومات . وان ثمة أدوات مادية بحتة تهىء لعملية الادراك وتساعد عليها . وهو لا يقبل اى تفسير آخر لماهية العقل وكيفية الحصول على المعرفة والمعلومات . لا ينوه فى اقوال الفلاسفة الغيبيين ، ولا يجرى وراء الخرافات والأباطيل . وفى تقسيمه للعقل يجعله قسمين : (قسم لا يقبل الزيادة والنقصان وقسم يقبلهما . فاما الأول فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء ، وأما الثانى فهو العقل التجريبى وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع) .

يعنى هذا انه يجعل وجود العقل العام سمة مشتركه للانسان تميزه من بقية الكائنات والمخلوقات . فهو يميز عنها بانه قادر على التفكير ، وتلمس مواطن النفع والضرر وغير ذلك . هذا الشىء الذى يجعل الانسان يميز بين الأشياء ، وهو الذى لا يقبل الزيادة والنقصان فى نظر الأبشيهى . أما العقل الآخر الذى يسميه « العقل التجريبى » فانه لا يتصف به الا الانسان الذى خبر الحياة ، ومر بتجارب متعددة ، واحتك بأحداث متباينة ، وعاشر خلقا كثيرين .

واستناد من ذلك كله ، بحيث كون لنفسه شخصية ، بأن تقف نفسه ، ونمى وعيه ، ورسع مداركه ، بالاعتماد على الواقع المحسوس .

وهناك دلائل كثيرة يستدل بها على عقل الرجل فى حضوره وغيابه . وهو يذهب الى ان من الممكن ان نحكم على شخصية الانسان الذى يوصف بالعقل حتى وان كان غائبا باحدى ثلاث : (اما برسوله واما بكتابه واما بهديته . فان رسوله قائم مقام نفسه وكتابه يصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها) . ويأتى باقوال العقلاء ، والعلماء ، وصفات العقلاء وما الى ذلك . ومن الطبيعى ان يكون موضوعه التالى « العلم » . ويبدو انه شديد التعصب للدعوة اليه . فهو يطالب الناس جميعا به . ويصرخ فى الذين أوتوا حظا من العلم ان يهبوا علمهم لمن لم يتعلموا لأى سبب من الأسباب . هناك فريضة يجب ان تؤدى . وواجب يلزم الالزام به . انه يريد للأمة ان تتعلم . وللصغار ان يلخذوا عن الكبار . وللنساء ان ينالوا حقهم فيه . ذلك انه يؤمن بان تعلم العلم حسنة ، ودراسته تسبيح . والبحث عنه جهاد . وطلبه عبادة . وتعليمه صدقة . وبذله لأهله قربة . ويستشهد فى هذا الصدد بقول الرسول : (هلاك أمتى فى شيئين ترك العلم وجمع المال) . وهكذا تبدو رؤية الابشيهى فى هذا الجانب واضحة . ولنا أن نتوقع ان يكون قصده من « العلم » لا مجرد القراءة والكتابة ومعرفة اصولهما . كما يحق لنا أن نستبعد أن يكون مفهومه جزئيا سطحيا قاصرا .

ذلك أن الكتاب نفسه يدل دلالة واضحة على انه ينظر الى « العلم » و « الثقافة » نظرة شمولية مستوعبة ، لا تقف عند حد فرع معين من فروع المعرفة الانسانية ، وانما تمتد فتشمل الكثير من الوانها ، كما تبين لنا من مجرد عرض للموضـــوعات التى تناولها ابواب الكتاب . وهـــذه هى النظرة التى كانت ســـائدة قبل الابشيهى وعلى ايامه .

ويتنبه « الابشيهى » فى كتابه الى شىء مهم . وهو مدى الخطر الذى يصيب العلم والعلماء ، ان اتخذا وسيلة يتلاعب بها الحكام والملوك والأمراء والسلاطين . فيجب الا يكونا اداة فى ايدى السلطه الحاكمة توجهها كيف تشاء ، وحسب رغبتها ، ووفقا لاتجاهها . وانطلاقا من فهمها للدور الذى يجب ان يلعبه العلم والعلماء . انه يحذر العلماء من أن ينخدعوا بحيل الحكام ، لأنه اذا حدث شىء من هذا ضاعت فائدة العلم ، وافتقد العلماء مكانتهم بين الناس ، ولم يعد ثمة مجال لاستفادة الناس منهم . وهو يستشهد هنا بقول « الفضيل » : (شر العلماء من يجالس الأمراء وخير الأمراء من يجالس العلماء) .

ويعجب الابشيهى بالمتعلمين والمثقفين والعلماء الذين لـــم يرضخوا لسطوة الســـلاطين وامرة الحكام ، والذين لم يستهينوا بعلمهم ولم يهينوا كرامتهم . ويلتقط صور بعض ذوى الشخصية القوية من المثقفين كأنما يقدمهم نماذج تحتذى . والأكثر من هذا انه يعتبر فصـــاحة المرأة احيانا جزءا من قوة شخصيتها ، ويجعل

للفصيحات من النساء بابا خاصا فى كتابه . من ذلك ما حكاه عن ابى عبد الله النبى ، عن الفتاة التى صادفت المأمون وهو بالكوفة ، وكانت على علم بالأنساب عظيم . وظلت تستعرض امام الخليفة سمات كل فرع من فروع القبيلة . وتبين له انها على دراية كبيرة باصله وحسبه حتى اطربته طربا عظيما . واعتبرها من اكبر الغنائم . ثم قرر ان يتزوجها . وحقق رغبته فعلا بعد اتصاله بابيها . ثم عاد مسرورا . ويقال انها والدة ولده العباس .

وتقديم المؤلف لهذه الشخصيه النسوية كان على اساس انها لم تخش السلطان . ثم لاعتبار انها فتاة مثقفة تعرف اصول النحو والصرف ، وتلم بالأدب العربى . وتحفظ شعر العرب الأقدمين . بالاضافة الى ثقافتها التاريخية . وهى ليست الصورة الوحيدة التى يقدمها الكتاب ، معجبا بها . مشيدا بموقفها ، فان صفحاته تحتشد بمثيلاتها .

ويظهر ان قضية السلطة وما يتصل بها كانت تشغل الأبشيهى كعالم لا كطامع فى منصب سلطوى . انه كان يبغى العدل . ويستهدف تحقيق المساواة بين الناس . ويرفض الظلم باى صورة من الصور . ويرى ان الحاكم الحقيقى هو الذى يتخلى عن كل الصفات اللاانسانية ، ويتحلى بكل الأخلاقيات الحميدة الكريمة . وهو الذى لا يعزل نفسه عن الجماهير . وهو الذى لا يستغل مكانته لمصلحته الذاتية وان تعارضت وطغت على مصلحة الناس . واقواله هو فى « العدل » كثيرة . وقصصه التى يرويها من عدل

الأنبياء وبعض الحكام والسلاطين . وكذا الأمثلة التى يأتى بها والحكايات التى يسردها تدل على اهتمامه الشديد بهذا الموضوع ، وعلى أنه يريد ان يؤكد العدل وينبته فى المجتمع . اعلم ان عدل الملك يوجب محبته وجوره يوجب الافتراق عنه وافضل الازمنة ثوابا ايام العدل) . وينقل عن الوليد بن هشام قوله : (ان الرعية لا تصلح بصلاح الوالى وتفسد بفساده) . ثم يروى عن ابن عباس ان ملكا من الملوك خرج ليسير فى مملكته فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه باخذها . فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس . فقال له الملك ما بال حلبها نقص ارعت فى غير مرعاها بالأمس . فقال : لا . ولكن اظن ان ملكنا رآها او وصله خبرها فهم باخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم او هم بالظلم ذهبت البركة . فتاب الملك وعاهد ربه فى نفسه ان لا ياخذها ولا يحسد احدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عادتها .

وينصح الحكام وولاة الأمور بالا يضعوا بينهم وبين الناس حجابا . ويخصص الباب السابع عشر من الكتاب لذكر الحجاب والولاية وما فيهما من الخطر . وهو يؤمن ايمانا قويا بان لا شىء اضيع للملكة واهلك للرعية من شدة الحجاب . وبانه اذا سهل الحجاب احجمت الرعية عن الظلم واذا عظم الحجاب هجمت على الظلم . وقال ميمون ابن مهران : كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبة : من بالباب : فقال رجل أناخ ناقته الان يزعم انه ابن بلال مؤذن الرسول . فأذن له ان يدخل . فلما دخل قال :

حدثني أبي انه قد سمع رسول الله ﷺ يقول : من ولي شيئا من امور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامه ، فقال عمر لحاجبه : الزم بيتك . فما رؤى على بابه بعد ذلك حاجب .. وكان خالد بن عبد الله القشير يقول لحاجبه : اذا اخذت مجلسي فلا تحجبن عني احدا فان الوالي لا يحتجب الا لثلاث : عيب يكره ان يطلع عليه احد . او ريبة يخاف منها ان تظهر . او بخل يكره ان يسأل شيئا .

ويحذر الكتاب من صحبة الحاكم او السلطان . وهو يوجه كلامه هذه المرة لا الى العلماء والمثقفين وحدهم ، ولكن الى كل الناس . انه ينهى عن صحبة السلطان . ويعتمد في هذا الباب على كتاب « كليلة ودمنة » اذ نجده ينقل عنه كثيرا . وهو يثبت ذلك . وبطبيعة الحال فانه لا ينقل الا ما يدعم وجهة نظره ويؤيد رأيه . وقد ناكد لنا ذلك من قبل . يقول : (لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك فانهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يرغبون فيك الا ان يطمعوا فيما عندك فيتزببوك عند ذلك . فاذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك . ولا ود للسلطان ولا اخاء . والذنب عنده لا يغفر . وقال الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه اخوف) .

ويتحدث الكتاب بعدئذ عن القضاء ، والقضاة ، وعن قبول الرشوة والهدية على الحكم . وعن الابطال والشجعان . وثمرة الشجاعة . والحروب وكيفية تدبيرها . وفضل الجهاد والدفاع عن النفس ضد الغزاة . والتحريض على القتال . ويصنف الأبطال ويقسمهم الى مستويات . كذلك فانه يصنف النوادر . ويتناول كل

نوع منها بالتفصيل : مثل نوادر القضاة . ونوادر القراء والفقهاء . ونوادر العرب . ونوادر النحاة . ونوادر المعلمين . ونوادر المؤذنين . ونوادر المتنبئين . وهو جزء طريف ككثير من اجزاء الكتاب التى تتمتع بهذه الصفة .

ويخصص الباب السادس من الكتاب للأمثال . ويقف منها نفس الموقف من النوادر . فيجعل قسما للآيات القرآنية التى تسرى مسرى الأمثال . وآخر للأحاديث النبوية وثالثا لأمثال العامة . وخامسا للأمثال السائرة بين الرجال والنساء . وسادسا للأمثال التى نظمت شعرا . وهو فى كل تسم يرتب الأمثال تبعا لحروف المعجم . ومن الأمثال الطريفة التى أوردها « كلب جوال خير من اسد رابض » . « ظاهر العتاب خير من باطن الحقد » . « فم يسبح وقلب يذبح » . « فلان كالكعبة يزار ولا يزور » ... « قيل للزمار تهيأ للزمر قال المزمار فى كمى والريح فى فمى » . « ماشلتك يادمعتى الا لشدتى » ، « من قدم النحس تعب فى تاخيره » . « راح ذاك الزمان بناسه وجاء هذا الزمان بناسه ، وكل من تكلم بالحق كسروا راسه » . « راكب بلاش وينافش مسرات الريس » . « ركبتك وراى حطيت يدك فى الخرج » ...

ويركز الابشيهى فى احد ابواب الكتاب على ضرورة كتمان السر . اذ يجعل الأسرار . وبخاصة التى تتعلق بالدولة فى أيام سلمها وحربها اغلى بكثير جدا من خزائن الأموال . فحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار . لأن احراز الأموال منيعة بالابواب والأقفال ، واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق . وحمل الأسرار اثقل من حمل الأموال . فان الرجل يستقل

بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به ولا يستطيع كتم السر . وهو يفسر ذلك تفسيرا حين يقول . (وان الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال فاذا اذاعه استراح قلبه وسكن خاطره وكأنما القى عن نفسه حملا ثقيلا) . ويقول عمر بن عبد العزيز : القلوب اوعية والشفاه اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل انسان مفتاح سره .

وقلنا ان بالكتاب أبوابا تدخل فيما نسميه بالاتيكيت . خاصة تلك التي تتحدث عن العودة وحسن المعاشرة . والزيارة ، والاخوة ، وحسن الأدب والبشاشة والبشر وادب الطعام ، وآداب الضيافة ، وما ينبغي ان يفعله المرء عند استقباله ضيفا او عندما يكون هو الضيف ، وكيف يحافظ على وقاره اثناء الجلوس . وابان السير وعند التوقف . ومما يورده : قيل ثمانية ان اهينوا فلا يلوموا الا انفسهم : الجالس في مجلس ليس له باهل — المقبل بحديثه على من لا يسمعه . والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه . والمتعرض لما لا يعنيه . والمتامر على رب البيت في بيته . والآتي الى مائدة بلا دعوة . وطالب الخير من اعدائه . والمستخف بقدر السلطان .

وتكتمل تلك الآداب لو أننا نفذنا بقية التقاليد التي يراعيها الاسبهي ويطلب منا الحرص على الا تفلت منا . « لا تنظر في عطفيك . ولا تكثر الالتفات . ولا تقف على الجماعات . واذا جلست فلا تتكبر على احد . وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك ، ومن اللعب بخاتمك . وتخليل اسنانك . وادخال اصبعك في انفك . وكثرة بصاقك . وكثرة التمطي والتثاؤب في

وجوه الناس . وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا . واصغ الى كلام مجالسك . واسكت عن المشاحك . ولا تتصنع تصنع المراة فى التزين . ولا تلح فى الحاجات . ولا تشجع احدا على الظلم . ولا تكثر الاشاره بيدك ولا الالتفات الى من وراءك . واهدىء من غضبك ...

هذه هى قواعد الاتيكيت التى يضعها « المستطرف فى كل فن مستظرف » . وهو كتاب فى حاجة الى أن يطبع فى طبعات شعبية . كى يتداول بين الجماهير القارئة على كل المستويات . وتستلزم هذه التجربة ان يطبع النص اولا ، ثم من بعد اذا دعت الحاجة الى نشر هوامشه . مبها ونعمت ، والا فانه وحده يغنى . لكن على أن يقوم المتخصصون فى الميادين التى يتعرض لها بدراسته ، وتحليله ، وتهذيبه مما قد يشوبه او ينال من قيمته . فثمة اشياء تحتاج الى امعان نظر ، واعمال فكر . وبالذات القصص التى جاء بها المؤلف ونسبها الى شخصيات تاريخية معروفة .

وليس من شك فى أن القارىء المعاصر لهذا الكتاب سيجد فيه متعة وطرافه وفائدة ، ويكفى مؤلفه فخرا انه يؤمن بالعلم وينحاز له ، ويدعو الى الحركة والتطور ، ويرفض السكون والتحجر والتوقف . وهو الذى يقول . (الحركة ولود والسكون عاقر) .

وفضلا عن ايمانه بالعلم ، ودعوته الى الثقافة ، وتأييده للعدل : ثم وعيه بضرورة ان يبتعد العلماء عن السلطان . والا يسخروا علمهم لأهدافه ؛ فانه كان مثقفا ثقافة دينية تقليدية ؛ وحفل كتابه بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وقصص الصحابة

والرسل . كما استند الى روايات صحيحة فى الدلالة على بعض فكره وآرائه .

ولعل هذا النموذج الذى تمثل فيه هو نفسه ، قد ارتضاه للانسان المعاصر . أن يكون اصيلا فى فكره ومواقفه ورؤيته ، تقدميا فى حركته ، متطورا فى سلوكه ، ملما بالتراث وبما يجرى حوله من تيارات ومذاهب وافكار .

وكتاب كهذا ، كان لزاما ان يمتد تاثيره طويلا ، وبخاصة لدى كثير من كتاب القصـــة والرواية فى الأدب العربى الحديث بعامة ، وفى مصر بخاصة . اذ لفت أنظارهم باسلوبه . ولغته البسيطة ، وفكره الواضح . وعناصر القصة التى تتسلل فى معظم فصول الكتاب .

وفى الكتاب حديث مطول عن الشعر وفنونه واتجاهاته . فما من مؤرخ للأدب أراد تسجيل حركة الفن الشعرى فى القرن الرابع عشر الميـلادى فى مصر الا ورجـــع اليه واعتمد عليه . ودارسو الأدب الشعبى يستندون الى ما ورد بهذا الكتاب مما يتصل بالأمثال الشعبية التى تجرى على الســـنة الناس ، وبســـلوكهم وتصرفاتهم ازاء بعض المواقف . وعاداتهم اليومية ، وآرائهم فى الحكام والسلاطين . بل ان بعض القصص التى أوردها الابشيهى منسوبة الى اشخاص باعيانهم يعدها دارســـو الأدب الشـــعبى نماذج للقصص التى يتوسل بها العامة للتعبير عن اشياء يحبونها او اشخاص يعجبون بهم .

وينبغى الاشارة الى تقسيمه لفنون الشعر ، وتصنيفه الى موشح ودوبيت ، وزجل ، وموالیا ، وكان وكان ، والقوما . وهو ما نجده واضحا فى الدراسات الشعبية .

وكتاب القصة والرواية وجدوا فى هذا الكتاب طريقة فى المعالجة وفى عرض المسائل تتلاءم والمناخ الذى صدر فيه .. وهم وان لم يقلدوه فانما اطلعوا عليه واشادوا به . من امثال محمود تيمور ومحمد فريد ابو حديد وعلى احمد باكثير . وبخاصة اولئك الرواد من كتاب الرواية والقصة الذين لم يقفوا عند حدود ثقافتهم الغربية ؛ وانما انطلقوا من الأساس العربى الأصيل .. فكان المستطرف فى كل فن مستظرف واحدا من الكتب العربية التراثية التى حرصوا على استيعابها جيدا .

واذا كنا قد لاحظنا أن بالكتاب بعض الأحداث والمواقف والقصص التى يمكن اعتبارها اقليمية محلية خاصة بالبيئة العربية فى مصر ؛ فان الكتاب فى جزيئه سادته روح عربية اسلامية غطت على هذا الاحساس بالمحلية . تدل على ذلك فصوله الكثيرة جدا التى ضمنها أبوابه الأربعة بعد الثمانين .

ولما كنا فى الفصول المتقدمة قد وقفنا عند القرنين الثانى والرابع فانا هنا قد عرضنا لكتاب صدر فى القرن الثامن الهجرى . تمهيدا للانتقال الى القرن التاسع عشر الميلادى ، حيث بداية النهضة الحديثة فى مصر ، وحيث اتجاه جديد فى الفكر الاجتماعى والتربوى والتعليمى والثقافى .